مشكلات اللغة العربية المعاصرة

العنصر الأول: الضعف اللغوي العام:

إن الملاحظ للغة مجتمعنا العربي إما أن يجد عزوفا كاملا عن استخدام الفصحى، والاعتماد فقط على العاميات، أو يجد استخداما للفصحى في بعض المواقف الاتصالية المحدودة في حياتنا اليومية، ويجد أيضًا عن هذا القدر المحدود من استخدام الفصحى قد أصابه غير قليل من الانحرافات اللغوية على مستويات اللغة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والإملائية، وذلك كله يؤكد ضعف المَلكة اللغوية لدى المجتمع العربي المعاصر، فعلى المستوى الصوتي نجد بعض الأصوات لا تخرج من مخارجها، فتسمع القاف كافًا، والصاد سينًا، والطاء تاءً، والذال زايًا إلى آخره، فضلًا عن اضطراب في أدائها على مستوى التركيب والأداء، سواء في النبر ونظامه أو التنغيم وقوالبه، أو سرعة الكلام وبطئه... إلى آخر عناصر الأداء. وعلى المستوى الصرفي نجد العديد من الأخطاء في الأبنية الصرفية على مستوى الضبط أو الصياغة. وعلى المستوى النحوي لا نكاد نجد أثرًا للإعراب في كلمات اللغة، وعلى المستوى الدلالي نجد كثيرًا من الألفاظ لا تستخدم في غير المشهور من معانيها، وعلى مستوى الرسم نجد الخَطب أكثر؛ إذ المعروف أن أحكام الرسم مبني معظمها على معرفة بالنظم الصوتية والصرفية والنحوية.

ولعل من أسباب حالة الضعف اللغوي التي تعانيها مجتمعاتنا ما يلي:

١-استخدام العامية في التعليم ويرجع هذا إلى أن العامية ضعيفة في مادتها، فقيرة في ألفاظها، مقفرة في اشتقاقاتها، وأن من دأبها التهاون في التعبير، وهذا يؤدي إلى تهاون في التفكير، وهذا التهاون تنشأ عنه عادات لغوية رديئة، وينبني عليه الكسل العقلي، ولا يرى كثير من المعلمين خطورةً في استعمال العامية والتدريس بها؛ ولذا يعتمدون عليها، سواء أكان ذلك في المرحلة الجامعية أم فيما قبلها، فنراهم في كثير من البيئات العربية لا يستخدمون الفصحى في قاعات الدرس؛ جهلًا لها أو ازدراءً لها أيضًا، ولا يحاسبون تلاميذهم عليها، بل إن بعض من يقومون بتدريس الفصحى- للأسف الشديد- ينطبق عليهم هذا القول، ثم إن ما يتعلمه

الطالب من مدرسي اللغة الجادين الملتزمين بالفصحى يهدمه مدرسو المواد الأخرى، الذين يستخدمون العامية ويُحلّونها محل الفصحى دون أدنى غيرة عليها.

الآثار المضرة لاستخدام العامية في التعليم على التكوين اللغوي للطالب ومستواه الفكري، ومن أهم تلك الآثار ما يلي:

أولًا: القصور في فهم الطالب وإدراكه وتعبيره:

وما يترتب عليه من ضعف في المواد الدراسية؛ فالطالب لا يتمكن من معلوماته في أي فرع من فروع الدراسة إلا بإتقان التعبير السليم، إذ وضوح الأسلوب يتوقف عليه وضوح الفكرة، والعامية قاصرة عن بلوغ هذه الغاية .

ثانيًا: ازدراء الطالب للفصحى:

إن الطالب إذا لم يجد للفصحى واقعًا على ألسنة معلِّميه ولا أثرًا ملموسًا لما يدرسه من قواعدها- فإنه يزدريها وتهون في نفسه، فلا يقبل على تعلمها في مرحلته الدراسية أو في المراحل التالية لها.

ثالثًا: جهل الطالب بمنزلة العربية:

إن استخدام المعلمين للعامية في التدريس يُبعد المتعلم عن الفصحى، ويجعله غافلًا عن منزلتها بين علوم الإسلام، وعن أثرها العظيم في تقوية أواصر القربى بين المسلمين، سواء كانوا عربًا أو غير عرب.

علاج هذه الأخطار:

وأضع بين يديك علاجًا لهذه الآثار الضارة المترتبة على استخدام العامية؛ بها نرسخ الفصحى، ونجعلها لغة التدريس في الجامعة وفي غيرها:

أولًا: ينبغي أن يراعي المسئولون إعداد مدرسي الجامعة الموجودين فيها على اختلاف تخصصاتهم إعدادًا لغويًّا بحيث يكون في مقدورهم التعبير السليم عن الأفكار المختلفة. وذلك بإجراء دورات تدريبية لهم تعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع.

ثانيًا: ينبغي أن يستخدم المعلمون الفصحى في المحيط الجامعي في قاعات الدرس والمحاضرات العامة والخاصة، وتعاملهم فيما بينهم، وأحاديثهم مع الطلاب ويشجعوهم على ذلك، إن ممارسة الفصحى وتحري سلامة اللفظ، ودقة الأسلوب والالتزام بذلك من جانب المعلمين تعين على ترسيخها في أذهان الطلاب، وتساعد على الفهم والتعبير الصحيحين، وتحولها إلى مهارة من المهارات، وعادة صحيحة من العادات؛ وبذلك نكون قد هيأنا مناخًا صحيحًا جامعيًّا للطلاب، ينقلهم من العامية ويدفعهم إلى ممارسة الفصحى في أحاديثهم وأنشطتهم داخل القاعات وخارجها.

ثالثًا: ينبغي لمعلم العربية أن يتنبه إلى الأهداف العامة والخاصة من تدريس اللغة في المرحلة الجامعية؛ كي يصل إلى الغاية المنشودة.

العنصر الثاني: استخدام اللغة الأجنبية في التدريس :

لقد فرض الاحتلال نفوذه على أكثر الوطن العربي وامتدت يده إلى اللغة العربية بوصفها عاملًا من عوامل الحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية، وحاولت إحلال اللغة الأجنبية محلها، ولكنها لم تفقد الغيورين عليها من أبنائها وتحصنت في معاقل منيعة مثل الأزهر والزيتونة والقَرويين وغيرها، وظلت حية في نفوس بنيها محفوظة بالأصلين العظيمين القرآن الكريم والحديث الشريف، وعندما كشف الله الغمة وأزاح المحتل عن الديار وخرجت العربية من معاقلها لتنتشر وجدت المناخ قد تأثر تأثرًا متفاوتًا حسب قوة السيطرة الأجنبية وضعفها، فنجد دولًا عربية للعربية وجود ضعيف فيها، ولكنه وجود يعتمد على خلفية دينية وتراثية قوية، تعززه إرادة الدولة شعبًا وقادة، ونجد دولًا أخرى للعربية وجود كامل فيها تقريبًا عدا النظام التعليمي في المراحل الجامعية وما قبلها، ولا سيما في التعليم العلمي والمهني، كما نجد دولًا أخرى للعربية وجود كامل فيها عدا كثير من الكليات العلمية والمعاهد الفنية ومراكز البحث العلمي والدراسات العليا التي اصطنعت اللغة الأجنبية أداة للتعليم فيها ومعنى هذا أن اللسان العربي تأثر باللغات الأجنبية على المستويين: الاجتماعي والعلمي.

مظاهر هذا التأثر، والعلاج المقترح لها على كلِّ مستوًى من هذين المستويين:

أولًا: المستوى الاجتماعي:

يشير الواقع الاجتماعي العربي إلى مزاحمة اللغات الأجنبية للعربية وشيوع ألفاظ أعجمية على ألسنة أبنائها، ومن مظاهر هذه المزاحمة ما يلي :

١-كتابة كثير من اللافتات باللغة الأجنبية على المحال والمؤسسات التجارية والفنادق والمطاعم، ولا دافع إلى ذلك سوى التظاهر والتقليد وإبراز إعجابنا بالحضارة الغربية، وكأن في التشبه بها حلًّا لمشكلاتنا النفسية والحضارية، ومن الألفاظ التي تصك أعيننا صباح مساء: صالون، بوتيك، استوديو، بازار، ماركت، سوبر ماركت، ماركة، كافتيري.

٢- قيام كثير من المربيات الأجنبيات بتربية الطفل العربي، وبخاصة في دول الخليج العربي، وقد كشفت نتائج بعض الأبحاث أن ما لا يزيد عن ثمانية في المائة فقط من مجموع المربيات لهن إلمام باللغة العربية، فما الأثر الذي نتوقعه على لسان الأطفال الذين ترعاهم النسبة الباقية وهي اثنتين وتسعين في المائة من المربيات الأجنبيات؟! وهل ينتظر بعد ذلك السلامة والبقاء للغتنا العربية؟! ولك أن تراجع عزيزي الطالب نتائج الدورة التي عقدتها جامعة البحرين في المنامة سنة اثنتي عشرة وأربعمائة وألف من الهجرة بعنوان "تعريب التعليم العالي في دول الخليج مبرراته ومردوداته."

٣- التسميات المعلنة على مستلزمات الأطفال وطعامهم ولعبهم، وهي غالبًا ألفاظ أجنبية مكتوبة بحروف عربية.

٤- المعاملات الدولية المتمثلة في إبرام العقود والصفقات المختلفة بلغات أجنبية، سواء في مجالات السياسة أو التجارة أو الصناعة أو الزراعة أو غيرها، ويدخل في هذه النقطة جوازات السفر التي تصدرها الدول العربية لراغبي السفر إلى الدول الأجنبية وغيرها. تلك الجوازات مكتوبة بلغة مزدوجة؛ إذ تزاحم العربية فيها اللغة الأجنبية، في الوقت الذي تأبى فيه الدول الأجنبية أن تزاحم لغاتهم أية لغة أخرى بما فيها العربية.

٥- ما تقوم به أجهزة الإعلام المختلفة -بقصد أو بدون قصد- من بث أو نشر ما يضر العربية من استخدام العامية أو استخدام اللغات الأجنبية والإعلانات المعتمدة على الألفاظ الأجنبية المنطوقة في الإذاعة بالعربية أو المكتوبة في الصحف باللغات الأجنبية.

٦- تهافت بعض أبناء العربية على استخدام بعض الألفاظ الأجنبية في سياق الحديث العادي.

فما أسباب ذلك؟

إن هذه المظاهر تولدت من نزعتين متقابلتين :

الأولى: شعور أصحاب الحضارة الغربية بتفوقهم العلمي؛ جعلهم يشعرون أيضًا بتفوقهم اللغوي، وضرورة سيادتها على لغات الأمم الأخرى الأقل تقدمًا.

الثانية: رغبة بعض أبناء العربية في التشبه والانقياد للحضارة الغربية الحديثة .

الطرق التي يتم بها التغريب على هذا المستوى الاجتماعي:

أولًا: طريق تلقائي عفوي نتيجة للاحتكاك الثقافي والتواصل من خلال أجهزة الاتصال والإعلام التي غمرت العالم وجعلته أسرة واحدة متشاركة.

ثانيًا: طريق مقصود يُمَارس من خلال بعض القوى والهيئات ذات المصلحة في تغريب الأمة العربية وفرض تبعيتها للمجتمعات الغربية.

ثالثًا: طريق مقصود أيضًا يمارس من خلال أولئك الأفراد الداعين إلى ثقافة الغرب من أبناء المجتمع الأصليين تحت تأثير الإعجاب والتبعية لهذه الثقافة.

إن تغريب اللغة على هذا المستوى الاجتماعي يؤدي إلى آثار غير محمودة، أهمها ما يلي:

أولًا: يعد هذا الاقتراض اللفظي بمثابة مقدمة للاقتراض على مستوى الجملة والتركيب وبناء القواعد، وهو ما يهدد العربية ويصيبها في مقتل.

ثانيًا: إن هذا التغريب يعد بمثابة مقدمة للتغريب الثقافي بعامة والدخول في حالة التبعية العامة للقوى الأجنبية.

ثالثًا: إن هذا التغريب يؤدي إلى الانهزام النفسي والشعور بالتخاذل أمام الحضارة الغربية واحتقار الذات العربية لأن النفس - كما يقول ابن خلدون- تعتقد فيمن غلبها وتنقاد إليه.

علاج هذه الآثار:

إنه بإزاء حالات التغريب على هذا المستوى الاجتماعي لا بد من الأخذ بسياسة رشيدة للتخطيط اللغوي؛ وذلك لأن الحفاظ على العربية حية نامية هدف ديني واجتماعي، فالعربية ليست مجرد أداة، بل هي رمز لقيم أمة وأسس وَحدتها؛ ولذا يجب أن نُنقيَ لغتنا من هذه الشوائب بمنع الترخيص لكل من يستخدم لافتةً أو إعلانًا أو تسمية تشوِّه اللغة العربية، كما يجب ألا نبرم العقود إلا بالعربية ولا نصدر جوازات السفر إلا بالعربية، ولا نسمح للغة غيرنا أن تزاحم لغتنا إلا إذا سمح الأجانب للغتهم أن تزاحمها العربية، وهذا لم يحدث ولن يحدث.

وقد أوصى مجمع اللغة العربي في القاهرة في دورته الستين سنة أربع وتسعين وتسعمائة وألف من الميلاد عدة توصيات أهمها ما يلي :

أولًا: يوصي المؤتمر باستخدام الفصحى في جميع وسائل الإعلام وفي المسارح، وخاصة مسارح الدولة، وفي الإذاعتين المسموعة والمرئية، وبخاصة في المسلسلات التليفزيونية.

ثانيًا: حظر كتابة اللافتات على المحال التجارية والشركات وغيرها بأي لغة غير العربية، كما يوصي بحظر كتابة الأسماء الأجنبية بحروف عربية، وإصدار تشريعات تحظر استخدام هذا الأسلوب وتحرِّم من يستخدمه .

ثانيا: المستوى العلمي:

تستعمل اللغات الأجنبية على هذا المستوى العلمي في مجال التدريس والتأليف، سواء في الجامعة أو فيما قبلها، أما التعليم فيما قبل الجامعة فللعربية مكان كبير في هذه المرحلة في كثيرٍ من ديار العرب، ولكن الذي يعكِّر الصفو شيوع ظاهرة تتمثل في الإقبال المتزايد على تعليم الأطفال في مدارس اللغات الأجنبية في عددٍ من المجتمعات العربية بسبب السيطرة الطويلة للثقافة الأجنبية على بعض بلدان العالم العربي، منذ أن سيطر الاستعمار على المنطقة، وحتى بعد زواله وانحساره السياسي والعسكري، وهنالك دول أخرى عربية تنتهج هذا النهج بسبب دوافع اجتماعية وطبقية بالدرجة الأولى، ومن المتوقع أن يُسفِر هذا الإقبال على ازدواجية لغوية على ألسنة أطفالنا طلاب اليوم وقادة المستقبل مما يعمق الهوة الثقافية ويضيف مظهرًا تغريبيًّا جديدًا إلى ثقافة الأطفال في التعليم ما قبل الجامعة، ويظهر العربية بمظهر الضعف والتقصير، وقد لفت هذا الوضع أنظار عددٍ من المربين الغيورين على تعلم

العربيـــة بطريقـــة صـــحيحة؛ إذ إن الطفـــل قبـــل أن يُلـــمّ بالمبـــادئ الأوليـــة ليحســـن التعبيـــر والفهـــم باللغـــة العربيـــة نُعلّمـــه لغـــة أوروبيـــة ثانيـــة، وهـــذا بـــالطبع يزيـــد فـــي إرباكـــه وتكـــون النتيجـــة الطبيعيـــة أنـــه لا يـــتعلم العربيـــة كما يجب، ولا يتعلم اللغة الأوروبية تعلمًا مفيدًا .

ومـــن الأمـــور المتفـــق عليهـــا لـــدى علمـــاء التربيـــة أن مرحلـــة الطفولـــة المبكـــرة، والتـــي تنحصـــر خـــلال الســـنوات الســـت الأولـــى بصـــفة خاصـــة، ومراحـــل الطفولـــة المتوســـطة وهـــي بـــين ســـن السادســـة والتاســـعة مـــن العمـــر، وكـــذلك المرحلـــة المتقدمـــة التـــي تقـــع بـــين الســـن التاســـعة والثانيـــة عشـــرة- هـــي أهـــم المراحـــل فـــي اكتســـاب اللغـــة الأم وأن مزاحمـــة أيـــة لغة أخرى للغة الأم في هذه الفترة يهدد اللغة الأم.

وقـــد امتـــدت هـــذه الازدواجيـــة للأطفـــال فـــي هـــذه المرحلـــة المبكـــرة وظهـــرت فـــي الأعمـــال الأدبيـــة المؤلفـــة للأطفـــال، وكـــذلك البـــرامج الإذاعية والمرئية الموجهة إليهم.

أمـــا علـــى المســـتوى الجـــامعي فـــإن المشـــاهد أن العربيـــة الفصـــحى تواجـــه مشـــكلة أخـــرى فيـــه؛ فالمشـــاهد أن لغـــة المحتـــل هـــي أداة التـــدريس والتـــأليف فـــي معظـــم الكليـــات والمعاهـــد العليـــا التـــي تـــدرس العلـــوم الحديثـــة فـــي ديـــار العـــرب، ولا شـــك أن ذلـــك يعـــد جـــزءًا مـــن ظـــاهرة التغريب التي فرضها المحتل على كثير من جوانب حياتنا.

فما أسباب التدريس باللغة الأجنبية في الكليات والمعاهد العلمية؟

١- الاســـتعمار والتبعيـــة ونشـــوء بعـــض الجامعـــات العربيـــة فـــي ظـــل الاســـتعمار وفـــرض العمـــداء والأســـاتذة الأجانـــب أو مـــن يـــدين لهـــم بـــالولاء، هـــذا بالإضـــافة إلـــى قلـــة الأســـاتذة العـــرب، وقلـــة المراجـــع والكتب العلمية باللغة العربية.

والعلمـــاء العـــرب الـــذين يدرســـون فـــي المرحلـــة الجامعيـــة لهـــم فـــي ذلـــك أي التدريس بلغة أجنبية فريقان: معارض ومؤيد.

المعارضـــون: يـــرون عـــدم قـــدرة العربيـــة علـــى توصـــيل المعـــارف والمعلومـــات إلـــى الطـــلاب؛ لأنهـــا فـــي نظـــرهم لغـــة أدب وخيـــال، لا لغـــة علـــم وحضـــارة، وهـــذا مـــن أســـوأ مـــا توصـــف بـــه العربيـــة ويمكـــن إجمـــال رأي هؤلاء فيما يلي:

أولًا: عدم توفُّر الكتب والمجلات العلمية باللغة العربية.

ثانيًا: ندرة المعاجم العلمية العربية، والمعروف أن في كل علم عددًا كبيرًا من المصطلحات، وأكثرها لم يترجم إلى العربية حتى الآن، وربما لا يكون له مقابل في لغتنا.

ثالثًا: ندرة ترجمة الكتب والبحوث العلمية؛ مما يجعل متابعة الدراسة العربية صعبة.

رابعًا: لا تزال بعض العلوم في دور النشأة والتكوين، ولا بد من متابعتها في مصادرها الأصلية.

خامسًا: احتياج الطلاب إلى اللغة الأجنبية بعد تخرجهم حين يعملون في الجامعة أو مراكز البحوث العلمية .

أما المؤيدون فقد رأوا أن التدريس والتأليف بالعربية يحقق الفوائد الآتية:

أولًا: القدرة على استيعاب العلوم باللغة الأم؛ إذ معظم الطلبة في جامعاتنا عرب، وقد اتضح من خلال التجارب أنهم لا يستوعبون العلوم بسرعة وبدقة بغير العربية؛ لأن فهم اللغة الأجنبية يستغرق وقتًا طويلًا، فتضيع المادة العلمية التي تُعدّ الهدف الأساسي في المحاضرات.

ثانيًا: إزالة الازدواجية بين لغة الطلبة ولغة العلم الذي يدرسونه، وفي ذلك نفع كبير وتقدم سريع.

ثالثًا: المساعدة على نمو العربية وتطورها؛ لتستوعب متطلبات العلم والحياة الحديثة.

رابعًا: حماية العربية واحترام الناطقين بها؛ لأنها لغة الأمة، وينبغي أن تكون هي الأساس في التعليم، إنها ليست مجرد رموز أو أداة للتفاهم، ولكنها صورة تاريخنا ووعاء ثقافتنا.

خامسًا: القضاء على التخلف وصون الطاقات من الضياع، طاقات الأساتذة الذي يجدون لغات أخرى غير اللغة السائدة في التدريس.

ويعتمد هؤلاء المؤيدون فيما تقدم على أمرين :

الأول: قدرة العربية على مواجهة العلوم تدريسًا وتأليفًا، ومن أمارات ذلك :التاريخ الذي مرت به العربية في العصرين العباسي والحديث، و نجاحها في الجامعات العربية التي عربت العلوم،

مثل: سوريا، و نجاحها في مرحلة الثانوية؛ إذ لا ينكر أحدًا أن كتب هذه المرحلة تضم أصول العلوم الحديثة، و نجاح التعليم العالي بغير الإنجليزية في جامعات العالم المختلفة.

الأمر الآخر: اعتماد العربية لغة سادسة في الأمم المتحدة؛ حين لوحظ أن شروط اللغة العالمية متوفِّرة فيها، فهي تتميز بانتشارها وكثرة أبنائها وأهميتها الحضارية، وإقبال غير أبنائها على تعلمها والتعامل بها.

وقد أُبطلت حجج المعارضين؛ حيث يسلم المؤيدون بِنُدرة الكتب والمجلات والمعاجم العلمية سواء العربية منها أو المترجمة كما رأى المعارضون، كما أن المكتبة العربية لا تعدَم المئات منها، ولكنها قليلة إذا قيست بما يصدر في العالم، ولكن ما من سبيل إلى نموها وازدهارها بغير العمل والمثابرة. وتقع مسئولية ذلك على الأساتذة والباحثين المتخصصين في كل مجال.

أما المشكلات التي تواجه تعريب المصطلحات فيمكن التغلب عليها بما يلي:

الأول: استعمال المصطلح الأجنبي؛ مما لم يوضع له اسم عربي، وشرحه بالعربية توفيرًا للوقت والجهد، ولا ينبغي تأخير التعريب في مجال المحاضرات والتأليف وربطه بتعليم المصطلحات.

الآخر: الاستعانة بالجهود المَجمعية والفردية الحديثة، التي تمخضت عن معاجم عديدة في مجالات العلوم المختلفة.

ورحم الله حافظ إبراهيم؛ إذ جعل العربية تتحدث عن نفسها وتقول:

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادي بوأدي في ربيع حياتي
أرى كل يوم بالجرائد مزلقًا من القبر يدنيني بغير أناة
وسعت كتاب الله لفظًا وغاية وما ضقت عن آيٍ به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماءٍ لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي